القراءة العربية

انتقاد طريقة تعليمها

(١) دخول التمدن الغربي الى بلادنا

يمتاز القرن التاسع عشر عند ابناء اللغة العربية على غيره من القرون الماضية بانهُ كان فاتحة دخول التمدن الغربي الى بلادهم . وكانت بعثة نابليون على وادي النيل قد سبقت فأعدَّت الطريق ومهَّدت السبيل ثم تبعها على التوالي كثير من العوامل والحوادث والوسائط التي هيَّأت لقبول الخواطر والافكار واعانتهُ على ما اراد من سرعة الامتداد والانتشار كالرسالات الدينية والعلمية والشركات الصناعية والتجارية والزراعية وحادثة سنة ١٨٦٠ في سورية وحادثة سنة ١٨٨٢ في مصر وتوفُّر وسائط الاتصال والانتقال بحيث ارتبط الشرق والغرب بصلات البريد واسلاك التلغراف وخطوط السفن البخارية في البحر والسكك الحديدية في البر وغير ذلك مما اغرى كثيرين من اهل اوربا واميركا بالسفر الى مصر وسورية والعراق للسياحة والتنزه ورؤية المعاهد والمشاهد او لإنشاء المتاجر والمعامل والمصانع او لتأسيس المدارس والمستشفيات والمتصدَّقات او لغيرها من الاسباب

وما لبثنا بعد اقامتهم بيننا ان تعارفنا وتمازجنا وارسلنا اولادنا الى مدارسهم فتعلَّموا لغاتهم وعلومهم وألمُّوا بمعرفة كثير من اختراعاتهم الحديثة واكتشافاتهم الجديدة واقتبسوا شيئاً ليس بقليل من اخلاقهم وعاداتهم واميالهم . ثم اخذ كثيرون منا يسافرون الى اوربا واميركا اما للاصطياف او لمجرد السياحة والتجوال او للتبحُّر والتوسُّع في الطب والحقوق والهندسة وسواها من العلوم والفنون او لاغراض تجارية او صناعية او لغيرها من الشؤون

(٢) الانقلاب العظيم الذي نشأ عنهُ

وعلى تمادي الايام وتكرار الاختلاط الذي اقتضاهُ التجاور والتزاور ارتبطنا بهم واتصلوا بنا بعلاقات تجارية واقتصادية وعملية وادبية وتوثقت بيننا وبينهم صلات التعارف والتآلف ثم شافتنا حضارتهم فشئنا مطايا الاقتداء وشجذنا غرار الاقتباس والتقليد وطفقنا نتعوَّد عاداتهم ونتخلق باخلاقهم ونتحدَّاهم في اميالهم ومصطحباتهم وحركاتهم وسكناتهم وجاريناهم في كل شيء تقريباً في المآكل والملابس والمآكل والمشارب والملاهي والملاعب . وبكلمة اقول اقتبسنا حضارتهم وتمدَّنا تمدُّنهم

وليس هنا مقام البحث في هذا التمدُّن واظهار ما فيهِ من الفوائد والمضارّ او ما لهُ من الحسنات والسيئات ونكتفي اقول انهُ احدث في بلادنا انقلاباً عظيماً جدًّا تناول شؤوننا الاجتماعية والاقتصادية وشمل مطامعنا الادبية والمادية وأثّر في عواطفنا واذواقنا وامالنا . فقد كان كلٌّ من هذه الامور قبل دخول التمدن الغربي الى بلادنا بسيطاً مجرَّداً او واحداً فرداً او محدوداً محصوراً فاصبح الآن مجمعاً لانواع المركبات والمختلطات والمتعددات التي تتنافس في تطلب الزيادة لكلٍّ منها حتى فاقت مطالبنا الحد وشبت مطامعنا عن طوق الحصر ولم تقف عند حد

ويذهب بعضهم ان هذا الانقلاب من جملة اسباب مهاجرة السوريين الى اميركا ولعلهُ غير بعيد عن الصواب

(٣) تأثيرهُ العلميّ

واني لضيق المقام اترك الكلام على ما كان لهذا الانقلاب من التأثير العام في احوالنا المعاشية والاجتماعية واقتصر على بيان التغيير الذي طرأ بسببهِ على حالتنا العلمية واخصُّ منها بالذكر ما لهُ تعلق شديدٌ بلغتنا العربية نفسها ودخلٌ كبير في موضوع هذه المقالة

ففي القرن الثامن عشر وما قبلهُ كان المتعلمون في بلادنا وهم قليلون جدًّا يتفاخرون الأُسيين بعلوم ومعارف لا تتعدّى القراءة والكتابة وكان اذا اتفق وجود بعض افراد ضربوا بسهم من العلوم النقلية كالصرف والنحو والمعاني والبيان وعرفوا مبادئ العلوم العقلية كالحساب والجبر عدهم الخاصة من جهابذة العلماء الاعلام ورفعهم العامة الى مصاف الفلاسفة العظام

وكانت المطامع العلمية في ذلك الزمان حتى الى اواسط القرن التاسع عشر محصورة في معرفة اللغة العربية وما جدَّ فيها من مبادىء بعض العلوم الحديثة . فكانت الحياة حينئذٍ على قصرها معدودة من هذه الجهة طويلة وذلك لقلة ما أُريد تحصيلهُ فيها وكان الوقت لا قيمة لهُ على الاطلاق . فلم يكن يهمُّ الوالدين ان يقضي الولد العقد الاول ونصف العقد الثاني من عمرهِ في تعلُّم اسماء حروف الهجاء والحركات وقراءة الكلمات وكتابتها ثم يقضي طورَي المراهقة والشبيبة في تحصيل علوم اللغة وفنون الادب . ولم يكونوا والحالة هذه يشعرون بالخلل العائد بالكتب والطرق المستخدمة في تلك الايام لتعليم القراءة والكتابة وما وراءهما من العلوم النقلية ولا شكوا قطُّ من اقل صعوبة وجدوها في تحصيل اللغة نفسها لانهُ لم يعرض لهم مع اتساع الوقت ما نبّههم الى شيء من هذا القبيل

(٤) الشعور بصعوبة تحصيل اللغة العربية

ودام الحال على هذا المنوال — حتى حدث الانقلاب المتقدم ذكره فاخذت حاجاتنا ومطامحنا تزيد وتتسع واصبحت الحياة على طولها اقصر من ان تكفي لتحصيل ما تمس الحاجة اليه . وتحتم على فتياننا الذين يطلبون العلم للتكسب — وكثير ما هم — ان يكون الواحد منهم في آخر العقد الثاني (اي وهو ابن عشرين سنة) قد احاط علماً بفنون اللغة العربية كلها واستوفى قسطه من معرفة قواعد لغتين اخريين واتم تحصيل العلوم المطلوبة لنيل الشهادة الثانوية (البكلوريا) وجاز فوق هذا كله الامتحان النهائي في علم الطب او الحقوق او الهندسة او غيرها من العلوم العالية

فلم يبق لهم من الوقت ما يستطيعون انفاقه على تعلم قراءة لغتهم ومعرفة فنونها سوى جانب يسير يقضونه ايضاً في تعلم لغتين اخريين معها كما تقدم الكلام ولم يعودوا يتمكنون في ضغطة كهذه من تحصيل ما ارادوا تحصيله من لغتهم . ولو كانوا منقطعين فيها لتعلم اللغة العربية فقط لجهلوا سبب تقصيرهم الحقيقي ونسبوه الى ضيق الوقت وقصره . ولكنهم اذ كانوا في الوقت نفسه يتعلمون ايضاً مبادئ لغتين اخريين ولم يقصروا في تحصيلها كما قصروا في تحصيل مبادىء لغتهم تنبهوا شيئاً فشيئاً الى علة تقصيرهم الحقيقية حتى وجدوها اخيراً في الكتب الموضوعة لتعلم قراءة اللغة العربية والطرق المتبعة في تعليمها . ثم قابلوا ذلك بما في كتب قواعد اللغتين الفرنسوية والانكليزية من قرب التناول وما في اساليب تعليمها من السهولة والبساطة فظهر لهم الفرق بما لا مزيد عليه من الجلاء « وبضدها تتبين الاشياء »

(٥) كراهة ابناء العرب للغتهم

وكان هذا من اكبر الاسباب التي قللت رغبتهم في درس لغتهم وزاد ذلك فيهم على توالي الايام حتى اصبح كثيرون منهم على ما نراهم الآن من شدة كراهتهم لها وعدم ميلهم اليها ولو استطاعوا لقضوا على شملها بالشتات ولم يتركوا لعينها اثراً بين اللغات

والغريب ان سواد المشتغلين بتعليمها وقفوا تجاه هذا الانقلاب الكبير وقفة الجامد الهامد ولم يجاروه في شيء مما اقتضاه من الاصلاح والتغيير في كتب التعليم وطرقه وقد فاتهم ان ما صلح من الكتب لتعليم اللغة وحدها في مدة عشرين سنة لن يصلح لتعليمها مع لغتين اخريين وكثير من العلوم العقلية والطبيعية في اقل من نصف هذه المدة . ونسوا او تناسوا ان وقت المتعلمين اصبح في هذه الايام ذا ثمن لا تقدر قيمته فليس من الكياسة ان يضاع اثمنه في تعلم ما هو بالحقيقة واسطة لتحصيل العلوم لا غاية

واغرب من هذا ان بعضهم اجابوا اقتراح رؤساء المدارس الاجنبية ووضعوا في الصرف والنحو كتباً على مثال الموضوع لها في اللغات الاوربية . ولكنهم لسوء الحظ تركوا كتب القراءة وطرقها كما كانت عليه من قبل فالمطبوع منها جديداً مأخوذ عن القديم بطريق النقل او هو « نسخة طبق الاصل » وكان مثلهم في ذلك مثل رجل اراد ترميم بيت متصدّع متداعٍ فعني باصلاح اعلاهُ وترك اساسهُ على حالهِ . ومن الخطإ الذي لا يغتفر ان اولادنا الآن يتعلمون القراءة كما تعلمها اجدادنا ومن تقدمهم في العصور السالفة

(٦) طرق تعليم القراءة عند الاوربيين

ولا يخفى ان لتعليم القراءة في اللغات الاوربية طرقاً كثيرة اشهرها ثلث الاولى ان يبدأ المعلم بتعليم التلميذ اسماء حروف الهجاء ثم ينتقل بهِ الى كلمات صغيرة قليلة الحروف ويمرّنهُ على تهجئتها ولفظها كما هو شائع عندنا في تعليم القراءة العربية . والثانية ان يبدأ بتعليمهِ اصوات الحروف لا اسماءها فيبين لهُ صوت الحرف الطبيعي ساكناً غير مضموم ولا مفتوح ولا مكسور كأن يعلمهُ ان يلفظ مثلاً لكْ ولْ ومْ بدلاً من كاف ولام وميم ثم يتدرّج بهِ في ذلك الى الكلمات التي من حرفين او ثلثة من غير التفات الى تهجئتها او عدها باسمائها . والثالثة ان يعلمهُ قراءة الكلمات رأساً غير مستطردٍ اليها من تعليم اسماء الحروف او اصواتها ويبدأ ذلك بان يعمد الى بعض الكلمات المركبة من حرفين او ثلثة احرف ويكتبها امامهُ على اللوح ويلفظها لهُ حتى اذا تلقنها التلميذ جيداً واتقن كتابتها اضاف المعلم اليها كلمة أخرى بحيث يتألف منها جملة اسمية او فعلية واستعادهُ لفظها وكتابتها مرة بعد مرة على طرق مختلفة واساليب متنوعة

ولا ريب في ان هذه الطريقة مفيدة الى الغاية لكن وجود الحركات في اللغة العربية يحول دون استعمالها بالسهولة المطلوبة

(٧) طريقة تعليم اسماء حروف الهجاء وفسادها

ولعل الطريقة الاولى اقدم الطرق التي استعملت لتعليم القراءة ولا تزال في الشرق امها كلها واكثرها شيوعاً واستعمالاً حتى في المدارس الاجنبية حيث تُستخدم لتعليم قراءة اللغة العربية كما لتعليم قراءة غيرها من اللغات الاخرى

لكن الذين يعنون في اوربا واميركا بترقية صناعة التعليم وتسهيل القراءة على طلابها بتقصير مدتها وتقريب مسافتها نبذوا هذه الطريقة نبذ النواة وعدّوها اول عائق في طريق المتعلم يجب الاهتمام برفعهِ وازالتهِ

فالاولى جدًّا ان ينبذها المشتغلون منا بتعليم القراءة العربية لانها بشهادة كل متعلم ابعد الطرق تناولاً واصعبها تداولاً . ولا ادري ما القصد من تكليف الولد او اي طالب آخر مشقة تعلم الاسماء الموضوعة لحروف الهجاء وحركاتها وعلاماتها مع انهُ يهمهُ جدًّا في اول الامر ان يعرف اصواتها ولا يهمهُ مطلقًا ان يتعلَّم اسماءها . ولا يخفى ان تعلم اسم الحرف اصعب جدًّا على الطالب من تعلم صوتهِ لان اسمهُ مركَّب في الغالب من ثلثة احرف اما صوتهُ فمفرد بسيط كما ترى في الحرف كاف مثلاً فان اسمهُ « كاف » ولكن صوتهُ الطبيعي « كْ » وتعلُّم صوت واحد اسهل جدًّا من تعلم ثلثة احرف

(٨) طريقة مضلة وغير مفيدة

ثم ان في تعليم اسماء الحروف تضليلاً للمتعلم وان كان غير مقصود من المعلم . خذ تلميذاً وافرض ما شئت من الوقت في تعليمهِ اسماء حروف الهجاء حتى يحذقها جيداً ويعرفها كلها على اختلاف صورها ورسومها ثم اعرض عليهِ كلمة مركبة من كاف والف ونون مثلاً وكلفهُ ان ينطق بها من غير ان يسمع لفظها منك اولاً فلا يلفظ « كان » بل « كاف الف نون » ولماذا ؟ لانهُ سمع منك ان الحرف الاول « كاف » والثاني « الف » والثالث « نون » فتبادر الى ذهنهِ ان هذه اصواتها لا اسماؤها لانهُ لم يخطر قط ببالهِ انك تعلمهُ ما لا يفيدهُ استعمالهُ . فلما عرضتَ عليهِ مجموعها نطق بهِ بحسب ما علمتهُ . واذا حاولتَ ان تصلح لهُ هذا الخطأ وتعلمهُ لفظها الحقيقي حار في امرهِ لا يدري ايُّ التعليمين اصحُّ واصوب او حكم عليك في قلبهِ بالتضليل او على الاقل بالتقصير لانك اتعبتهُ واتعبت نفسك بالباطل ولم تنبههُ على ذلك من اول الامر

ولكن خذ ولداً آخر وعلمهُ رأساً اصوات الحروف ثم اعرض عليهِ هذه الكلمة فتراهُ على الفور ينطق بها « كان »

وان قلتَ ان المصلحين يتداركون هذا الخلل بتعليم الطالب صوت كل حرف على حدة بعد ما يتعلم اسمهُ او بتعليمهِ كيفية النطق بالكلمات بعد ما يفرغ من تعلم اسماء الحروف جريًا على القاعدة المتبعة في مدارسنا قلتُ هذا هو العبث بعينهِ والاَّ فما دامت طريقة تعليم اسماء الحروف قاصرة عن إدراك الغرض المقصود منها ولا بدَّ من استخدام احدى الطريقتين اللتين ذكرتهما معها وهي كما سبق الكلام صعبة المأخذ وبعيدة المنال فلماذا إذاً لا تتدارك الخلل باستئصال شأفتها من بين طرق تعليم القراءة والتقصر على استعمال احدى الطريقتين الأخريين ؟

(٩) طريقة تعليم اصوات الحروف

فيرى المطالع مما تقدم ان طريقة تعليم اصوات الحروف الهجائية هي الطريقة الوحيدة التي يجب على جميع معلمي القراءة العربية اتباعها سواء كان المتعلمون وطنيين او اجانب لان استعمالها سهلٌ جدًّا وبسيط الى الغاية . وهو علاوة على ذلك يضمن للمعلم والمتعلم سرعة الحصول على الغرض المقصود . أضف الى هذا كله انها طريقة طبيعية لقراءة الكلمات فلا يختلف فيها صوت الحرف مفرداً عن صوته مركبًا

ولكي تظهر مزية هذه الطريقة بكمال الوضوح والجلاء ويزيد المتعلمون رغبة فيها واقبالاً عليها يجب ان يكون تعليم اصوات الحركات المقوِّمة للفظ مقدمًا على تعليم اصوات الحروف حتى يدرك المتعلم حقيقة الفرق بين صوت الحرف الطبيعي ساكنًا وصوته مضمومًا او مفتوحًا او مكسوراً

(١٠) الخطر على اللغة العربية

هذا وليعلم الذين يغارون على لغتنا الشريفة ان سوء طالعها قضى عليها في هذه السنين الاخيرة بان تزاحمها اللغتان الممدودتان ارقى لغات العالم والمعروفتان بانهما مذخر العلوم والفنون ومستودع الحكمة والفلسفة ومصدر التمدن الحقيقي وهما اللغة الفرنسوية واللغة الانكليزية

وكلتاهما مشهورتان فوق هذا كله — بحق او بغير حق — بانهما اسهل من لغتنا تحصيلاً واغنى بالكتب والمجلات والصحف واجمع لاسماء ما يجدُّ ويحدث من العلوم والفنون والاختراعات والاكتشافات وأنهما واللغة العربية على طرفي نقيض من حيث الحياة والنموّ والجري على سنن التقدم والارتقاء فهما حيَّتان ناميتان ومجاريتان لاهلهما في كل ما ارادوهُ او مست حاجتهم اليهِ وهي بخلافهما ليست على شيء من ذلك كلهِ

هكذا تُمَدُّ لغتنا العربية وبمثل هذا يحكم عليها لسوء الحظ في مجالس لغات الامم المتمدنة . وسواد فتياننا وفتياتنا الذين تعلموا احدى اللغات الاجنبية يصدقون هذا الحكم ويؤيدونهُ . فمن الطرق التي لا خرق بعدها ان نجعل كتب قواعدها على العموم وطريقة تعليم قراءتها على الخصوص سلاحًا في ايدي المتحاملين عليها ودليلاً على صحة حكمهم في كل ما ينسبونهُ اليها

اسعد داغر